الكماليين أشفقوا على المصلين أن يخرّ عليهم المسجد فأرادوا أن يقدموهم بروّاد المتاحف لا يبالون أن يسقط عليهم المتحف أولا يسقط ؟ هل بلغ الولع بالآثار القديمة عندهم أن يمحوا الآيات القرآنية ليكشفوا عن الرهبان والصلبان ؟ على أن هذه الآيات قد كتبت بخط جميل يجعلها من الفنون الجميلة ، ومضت عليها عصور تجعلها من الآثار القديمة

لست أرى فيما صنعه الكماليون بآيا صوفيا إلا إنقاذاً للمنهاج الذي وضعوه . فهذا جامع كان كنيسة معظمة عند النصارى ، وقد فتح المسلمون القسطنطينية فجاءوا من آيات الفتح والظفر تحويل الكنيسة إلى جامع فطمسوا نقوش النصرانية فيها ، وبنوا لها منارتين ، ونصبوا أمامها لوحاً كتبوا فيه حديثاً مروياً عندهم : « لتفتحن القسطنطينية ! ولنعم الجيش جيشها ، ولنعم الأمير أميرها ! » ولا يزال الترك كلما مر بهذا الجامع ذكر الفتح والفاتح ، وغلبة الاسلام في هذه المدينة ونحو هذا مما لا يلائم « النهضة التركية الأخيرة » ولا يسايرالمدنية الحديثة ، ثم لا يزال هذا الجامع حسرة في نفوس النصارى ، ما نسوه قط ، وقد أعربوا عن أملهم في تحويله إلى كنيسة يوم احتلّ الحلفاء الآستانة في الحرب الكبرى فتجمع الروم حول آيا صوفيا ليستولوا عليه فيعود سيرته الأولى . فكان لزاماً أن يمحو الكماليون هذه الآية من نفوس الترك وغيرهم من المسلمين ، لينسوا الماضي وينظروا إلى الحاضر . وليتقربوا إلى أوربا النصرانية التي التزموا محاكاتها في كل شيء . وما بالكم أيها المسلمون تكرهون هذا التسامح في الدين وأنتم تزعمون أن دينكم دين التسامح ؟ ستقولون إن أوربا النصرانية لا تتسامح معنا فنجزيها تسامحاً بتسامح ، ولا يزال كثير من مساجدنا في الأندلس والبلقان كنائس في أيدي النصرانية . وفاتكم أيها المسلمون أننا أولى بالتسامح منهم فلماذا لا نبدؤهم به ! ! !

وقد بلغني أخيراً أن الحكومة التركية هدمت المسجد الجميل مسجد المدرسة البحرية في هيبه لي أطه ، هذا المسجد الذي كان يشرف على بحر مرمرة يوحي إلى المسلم أن دينه ينبغي أن يعز في البر والبحر ، فان صدق هذا الخبر ، ولست على يقين منه ، فهو حلقة من هذه السلسلة

(له بقيـــة) عبد الوهاب عزام

الديمقراطية والانتخاب

في التربية

للأستاذ فخري أبو السعود

مبدأ التعليم العام حديث العهد وليد الديمقراطية في نظم الحكم الحديثة ، إذ اقتضت الديمقراطية المساواة بين جميع أفراد الأمة في الفرصة التي تتاح لهم لتقويم طباعهم واستثمار مواهبهم ؛ ففي نصف القرن الأخير جُعلت مرحلة التعليم الأولى في دول الغرب الراقية عامة إجبارية مجانية ، لينال كل فرد حظاً من التعليم ، وعاونت الحكومات ذوي المواهب من أبناء الطبقة الفقيرة على المضي إلى غايات التعليم دون أن يكون فقرهم عائقاً لهم عن ذلك ، وبذا انتشر النور وأطلقت المواهب التي كانت من قبل معقولة

على أن التعليم العام لم يَخْلُ انتشاره من مساوئ : من ذلك أن معظم أبناء الطبقة السفلى يغادرون المدرسة توا عقب إنهاء مرحلة الدراسة الأولى ويعودون إلى مزاولة مهن آبائهم وينسون ما تعلموه في المدارس إلا النزر اليسير الذي لا يساعدهم إلا على قراءة غث الكتب وفارغ القصص ؛ ومن ثم انتشر الأدب الرخيص وطغى على الأدب العالي ، وتدلت الصحف ، وكثر الكتاب المرتزقون الذين لا يتوخون سوى ارضاء تلك العقلية المنحطة ، وقد آذى هذا الأدبُ المنحط الثقافةَ الرفيعة : إذ اجتذب غير قليلين من المتعلمين تعلماً راقياً ، لأن من طبيعة الانسان أن يؤثر الهين من الأبحاث على الصعب منها ، إلا أن يكون له وازع من نفسه شديد يَقْسرُهُ على التسامي عن الفضول ؛ وما من وسيلة من وسائل التثقيف الحديثة كالراديو والسينما والمحاضرات إلا أُسِيءَ استعمالها كما أُسِيءَ استعمالُ الكتابة إرضاءً لفضول أشباه المتعلمين ، وكانت النتيجة أن التعليم العام حين رفع مستوى الطبقة السفلى درجة هبط بعقلية الطبقة العليا مثلها

على أننا إذا فرضنا أن التعليم العام كان خيراً كله في بلاد الغرب التي سبقتنا اليه فهل هو كذلك في مصر ؟ لقد أخذنا

مبدأ التعليم العام فيما أخذنا عن أمم الغرب ، وقلنا : مادمنا نطالب الديمقراطية فى السياسة والحكم فلا بد من اتباعها فى التعليم ، وما دمنا نريد النهوض ببلادنا فلننشر فيها العلم لننقيها من خرافات الجهل وجموده ، وأغرقنا وتسرعنا فى تطبيق ذلك المبدأ شأننا فى كل ما ننقل عن الغربيين : فأنشأنا عشرات المدارس وزججنا فيها الناشئين من كل صوب ، وأنفقنا على ذلك الأموال الطائلة ، وتخرج فى معاهدنا ألوف الشبان ، فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة فشل لم يكن فى الحسبان : فأولئك الشبان يزيدون على حاجة البلاد ، وتعليمهم ناقص مشوه ، وأخلاقهم لا تحمد ، والتعليم عامة يتقدم فى طريق الضعف والانحلال سنة بعد سنة باطراد

* * *

ذلك بأننا أخذنا بمبدأ الديمقراطية فى التربية مطلقاً غير محدود ، وهو مبدأ غير طبيعى ولا يصلح به وحده مجتمع ولا نظام ، وإنما المبدأ السارى فى الطبيعة هو مبدأ الانتخاب : فالأصلح فى الطبيعة هو الذى يرقى ويسود ؛ وقد فطن إلى ذلك أول الشعوب أخذاً بالديمقراطية فى حياتهم الاجتماعية ونظمهم الحكومية ، وهم اليونان : فديمقراطية أثينا لم تكن فى الواقع إلا أرستقراطية إذا تذكرنا أنه كانت بها دائماً طبقتان ممتازتان غير متساويتين فى الحقوق والواجبات : طبقة الأحرار وطبقة العبيد . ولما بحث فلاسفة اليونان الكبار فى النظم الحكومية لم يؤثر واحد منهم الديمقراطية المطلقة ، ومالوا إلى الأرستقراطية لأنها هى النظام الطبيعى ؛ وحين عالج أفلاطون التربية وضع لها نظاماً أرستقراطياً قائماً على مبدأ انتخاب الأصلح ، لا ديمقراطياً على مبدأ المساواة التامة : فجعل التعليم على ثلاث مراحل يتمتع الجميع بالأولى منها ولا يرتقى إلى الثانية فالثالثة إلا من أظهروا استعداداً طبيعياً لذلك ، ومن المرحلة الأولى يتخرج أرباب المهن اليدوية ، ومن الثانية يتخرج المقاتلون ، ومن الأخيرة الفلاسفة والحكام

فالطبيعة لم تجعل أبناءها متساوين فى المواهب ، بل هى ترفع بعضهم فوق بعض درجات ، ومادام هذا كذلك فسيظل فى كل مجتمع فى كل عصر طبقات متفاوتة ، ولن ترقى أمة إلا أن تعترف ضمناً بالتفاوت بين هذه الطبقات ، والغفلة عن هذا التفاوت خطأ قاتل

وأشهر الشعوب بالديمقراطية فى العصر الحديث الانجليز ، ولكن من يتأمل فى حياتهم يرى أن ديمقراطيتهم أرستقراطية كديمقراطية أثينا : فالفوارق بين طبقات النبلاء والأوساط والسوقة قائمة محددة يشعر بها أفراد كل طبقة ، والنبلاء يترفعون على من عداهم ترفعاً شديداً ، والآخرون ينظرون إليهم نظرة رهبة وإكبار ، حتى لتكاد تكون طبقة النبلاء هذه أمة داخل أمة ؛ وهذا الشعور باختلاف الطبقات والتسليم به والاعتراف بالأمر الواقع دليل على نزعة الانجليز العملية ، وهو هو سر صلابة بنيان نظامهم الاجتماعى والحكومى ، وخلو تاريخهم من زعازع التقلبات

وهو أيضاً أكبر أسرار نجاح نظم التربية عندهم : فالنظام الارستقراطى يتمثل فى المدرسة الانجليزية كما يتمثل فى المجتمع الانجليزى : فالتعليم عام مباح للجميع ، ولكن هناك مدارس للخاصة قاصرة على أبناء من يأبون لأبنائهم مخالطة أبناء السوقة ، ومعظم أبناء الطبقة السفلى ينقطعون عن المدرسة بمجرد انتهاء المرحلة الاجبارية وينزلون إلى ميدان الحياة العملية ، ونظم المدارس من الشدة والدقة وجوها من النقاء بحيث لا يسمح بالاستمرار فى مراحل التعليم إلا لمن حسنت أخلاقهم ونضجت مداركهم ، والحكومة ومجالس الأقاليم والجماعات الخيرية لا تنفق أموالها إلا على النابغين المتفوقين ، وهكذا يبدأ التعليم فى أول مراحله ديمقراطياً عاماً ثم تتناوله يد الانتخاب بالتهذيب والتنقية فلا يبلغ القمة إلا الأكفاء خُلُقاً وموهبة ، ولا يصل إلى مراتب الادارة والحكم وقيادة مصالح البلاد وتوجيه مصايرها إلا صفوة أبنائها ، ويظل الأوشاب فى أسفل

* * *

أما فى مصر فاننا لطول لهفتنا إلى الديمقراطية والعلم — بعد أن عصف بنا الاستبداد والجهل أجيالاً — اندفعنا إلى مبدأ التعليم العام اندفاعاً ، وأخذنا بمبدأ الديمقراطية وحده ، وهو مبدأ كما تقدم غير طبيعى مالم يُمارَسه جنباً لجنب مبدأ الانتخاب ، ومالم يُراعَ معه قيام الفوارق بين الطبقات ، فأدى هذا الاندفاع إلى هبوط مستوى التعليم هبوطاً ذريعاً : فكثر عدد المتعلمين ولكن قَلَّتْ قيمة الواحد منهم بما يحمله من علم وخلق ، والجانب الخلقى هو الذى يعنينا هنا أكثر من غيره ، وقُساوى

ما يقال فى أخلاق أبناء مدارسنا وخريجيها أن النفس تمتلئ أسى ويأساً من مستقبل قضية الوطن العزيزة حين نذكر أن هؤلاء هم ذخر البلاد لغدها ، وما جنى على أخلاق متعلمينا هذه الجناية إلا حشد التلاميذ فى المدارس من جميع الطبقات بلا تمييز

فى كل أمة فى العالم طبقة سفلى ، فلا ضير علينا فى الاعتراف بوجود هذه الطبقة بيننا ، بل يجب علينا ونحن نلتمس موضع الداء ونحاول إصلاح عيوب التربية أن نذكر أن الطبقة الدنيا فى بلادنا كبيرة العدد كبراً يفوق ما بالبلاد الراقية ، وأن أخلاق تلك الطبقة فى منتهى الضعة ، لأنها ما تزال تحمل بين أطوائها آثار عصور الاستبداد والجهل التى أوهنت الأخلاق وبثت الكذب والنفاق والغش والخيانة والخشونة والوقاحة ، وما يزال أبناء الطبقة الوضيعة عندنا متسمين بهذه الصفات ، وهم لا يرون بها بأساً ولا يعدونها إلا إمارات مهارة وحنكة ووسائل احتيال للعيش وانتهاز للفرص

ومن سوء حظ التعليم فى مصر أن أبناء تلك الطبقة أقبلوا على التعليم فى السنين الأخيرة إقبالاً شديداً ، لا لقدر هم العلم قدره ومعرفتهم بفضل الخلق الكريم العالى ، بل طمعاً من الآباء فى أن يروا أبناءهم يرفلون فى أزياء الأفندية والبكوات ، ويترشحون لمالى المناصب والمرتبات ، فوجد أبناء السائقين والأسكافين والخدم والبوابين ومن إليهم أبواب المدارس مفتحة لهم على مصاريعها فجلسوا على أرائكها بجانب أبناء الأسر الطيبة الذين نشئوا فى بيوتهم على حسن الذوق ولطف الخطاب وطهارة الطوية ، فبثوا فى جو المدرسة خشونة طباعهم ، وجلافة خطابهم ، وسفالة أفكارهم ، وضعة نفوسهم ، ولم تكن إلا سنون حتى تسمم جو كل مدارسنا ، وصارت تطبع كل من أمها من التلاميذ — سوقتهم وراقيهم — على غرار واحد لا يتصف بصفة حميدة واحدة

والذى أراه أن مدارسنا لن تقال من كبوتها ، وأخلاق ناشئتنا لن ترفع من حطتها ، حتى يصد هذا الذى يحق أن نسميه « غارة السوقة على المدارس » ، ويفصل بين أبناء السوقة وأبناء الأسرات الطيبة فى معاهد العلم ، وما دام هذا المزج الذى لا تمييز فيه فستظل أخلاق سوقتنا تطغى على أخلاق عليتنا ونحن نمكن لهذا الطغيان بأيدينا فى مدارسنا

فى الأمة سوقة وفيها أسرات طيبة ، ونحن الذين نريد الرقى ببلادنا نبغى الخير للجميع بلا نزاع ، ولكن هذا المزج بين الفريقين بدعوى الديمقراطية لا يؤدى إلى غرضنا المنشود ، هو يهبط بأخلاق العلية ولا يرفع السفلة ، كالذى يمزج قليلاً من الماء النقى بكثير من الماء العكر لن يحصل إلا على ماء عكر ، والأجدر بنا ألا نتعجل الأمر فنحاول ترقية الأمة جميعاً وتعليمها وتهذيبها دفعة واحدة

إن الأجدر بنا أن نصرف عنايتنا أول الأمر إلى أبناء الطبقة المهذبة فنمدهم بالتعليم الذى ينشرونه وهم بمنأى عن مخالطة السوقة والتطبع بطباعهم ، فهؤلاء صفوة أبناء الأمة ، ومتى خلص لنا تعليمهم وتهذيبهم فقد أهدينا إلى البلاد طبقة من أبنائها الأكفاء ذوى الخلق العظيم القادرين على تدبير أمورها وقيادة نواحى النشاط العام فى حياتها ، ولنا أن نلتفت بعد ذلك — أو مع ذلك — إلى أبناء السوقة ، فنفسح لهم فى مجال التعليم والتربية بما يؤدى إلى ترقية أخلاقهم ورفع مستواهم ، ولكن على أن يظلوا بمعزل لا يبثون السموم فى بيئة أرفع من بيئتهم ، وإن رفع مستواهم لأمر يحتاج إلى أجيال ، كما أنهم إنما هبطوا الى دركهم ذاك فى أجيال ، فجدير بنا أن ننبذ التسرع جانباً

* * *

من ثم نرى ضرورة إنشاء مدارس منفصلة لأبناء الطبقة المهذبة والأسرات الطيبة كما أشرت اليه فى كلمة سابقة ، يقبل بها التلاميذ على أساس الانتخاب الخلقى والعقلى لا على أساس الديمقراطية العمياء ، فما لا نزاع فيه أن بالبلاد أسرات طيبة ينشأ أبناؤها فى بيوتهم نشأة طيبة ، فلننتخب أبناء هذه الطبقات — بخير الطرق المستطاعة — ولنفرد لهم مدارس تعدهم بالثقافة ولا تفسد أخلاقهم بمخالطة الدون

ولا شك أن اليسر المالى من دواعى رقى الأسرة ورقى المجتمع كله . فالأسرة التى تشعر باليسر وترى امتيازها المالى على غيرها تسعى ليكون لها امتياز خلقى أيضاً ، فتنزع إلى الحياة المنظمة النظيفة وتتسامى عن الشرور وعن السفساف ، وتسود فيها رقة الحاشية وسلامة الذوق ، والأخلاق الطيبة تبدأ تطبعاً وتستحيل

طبعاً وتبتدىء بالمظهر ثم تأخذ بالجوهر . أما الأسرة السوقية المدقعة فيورثها كفاحها فى طلب القوت وضيع الرذائل وقذرَ العادات ، ومن ثم يمكن أن يُتخذ اليسر المالى مقياساً لرقى أسرة الطالب وسموها عن أدران السوقية كما تتخذ مهنة والده مقياساً لذاك أيضاً ، ويجب بعد أن يُقبل الطالب فى المدرسة أن تستمر الرقابة المدرسية الصارمة ، فمن ثبت عدم استحقاقه للبقاء فى بيئتها الراقية يُفصل على الفور ليظل جو المدرسة دائماً نقياً يسمو بأخلاق أبنائها

كذلك يجب أن تسمو المدارس بالعقول : بأن يُرفع مستوى الامتحانات التى يتوقف عليها تقدم الطالب فى مراحل العلم — أيا كان نوعها وكيفما أدخلت على أنظمتها الاصلاحات — حتى لا يُسمح باجتياز مراحل التعليم المختلفة إلا لمن هيأتهم الطبيعة بالمواهب الصحيحة ، فيُسمح للجميع بطَرْق مرحلة التعليم الأولى ، ولكن لا ينال الاجازات العلمية إلا من هم جديرون بها

* * *

هكذا يُطبَّق مبدأ الانتخاب فى التربية بناحيتيها الخلقية والعقلية ؛ وباتباع هذا المبدأ ترقى أخلاق المتعلمين ويرتفع مستوى الحاصلين منهم على الاجازات العلمية ويقل عددهم فلا يزيد على حاجة البلاد ولا يكونون طبقة عاطلة ، ومن تخلفت به مواهبه منهم عن إدراك غايات العلم الصحيح يُعرج على ما يناسبه من مهن وأعمال

فمبدأ الانتخاب ، مبدأ الاعتراف بالتفاوت بين الأفراد والطبقات ، مبدأ اختيار الأصلح ، الذى هو المبدأ الطبيعى ، هو المبدأ الذى به تصلح نظم التربية عندنا وتبرأ من علتها الكثيرة ؛ أما مبدأ الديمقراطية المطلقة ، مبدأ فرض المساواة التامة بين الجميع فى كل شىء ، مبدأ إفساح المجال لكل من هب ودب ، فهو مبعث آفات التعليم ، وهو الذى أدى إلى حشد التلاميذ فى المدارس ذلك الحشد الذى عزا إليه تقرير معالى وزير المعارف معظم مساوىء التعليم فى مدارسنا

فخرى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

إبليس يتوب . . . !

للأستاذ محمد سعيد العريان

« ليس أسمج من الرذيلة تكون وحدها فى الأرض ، إلا الفضيلة تكون وحدها . . . ! »
الرافعى

اطَّلع إبليسُ ذات مساء على الأرض ؛ يستروح من نسمات الليل والدنيا نائمة — رَوْحَ الفردوس الذى طردته الكبرياءُ من رحمته . وانبثَّ زبانيتُه ينفثون الشرّ عن أمره فى أوكار الظلام ؛ ففى كل منعطَفٍ شيطانٌ صغيرٌ يتربَّص ، وبين كل اثنين ثالثٌ لا يرياه . . .

وسمع إبليسُ فى هدأة الليل عابداً يتهجَّد ، مايبدأ ولا ينتهى من سجدةٍ إلا لَعن الشيطان . . . !

وأحسَّ إبليسُ لعنات الشيخ العابد تنصبُّ عليه كما ينهال التراب على نار تتلهَّب ، أو ينصبُّ الماءُ على جمرةٍ تؤجّ

وصَرَّت أسنانُ الشيطان من الغيظ ، وانقدح من حَجاجيْه شرارٌ كاللهب ، أن عجزَ وعجزتْ زبانيتُه معه عن فتنة مثل هذا الشيخ الزاهد وإرادته على أن يتعلَّق بحظه من الدنيا وشهوات النفس ، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه من الجنة !

أفكان يعصم الشيطانَ من اللعنات أن يُسلَّط على الناس جميعاً شهواتهم ويُغرى بهم أنفسَهم ؟ فكيف وإنّ عبادَه من أهل الغواية والمعصية ليذكرونه باللعنة على مقدار ما يُيسر لهم شهواتِهم ويضاعف لهم من مَسرّاتها ؛ وإنهم ليسرعون إلى لعنته إسراعَهم إلى طاعته . . . ؟

وهبَّت نسمةُ السَّحر تُعطر الدنيا بأنفاس الجنة ، فاستروَح منها إبليسُ رَوحَ الماضى يُذكره أيامه كلها منذ بدء الخليقة ويلقى التاريخَ بين يديه . وتنفَّسته الذكرى وعاد الزمانُ القهقرى أمام عينيه ؛ فاذا هو مَلَكٌ بين الملائك يسبِّحون بحمد ربِّهم حافِّين من حول العرش ؛ ثم إذا هو يفسق عن أمر ربِّه أبياً مستكبراً أن يسجد لبشرٍ من طين ؛ وإذا هو من بعدُ مطرودٌ